هشـــام المؤيَّـــــد

صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ

أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩ م

عندما مات الحكم المستنصر ظهرت بادرة تُنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد ، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه وكان عند موته غلاماً فى الثانية عشرة ، ومعنى ذلك أن السلطان سيقع فى يد من يقومون بالوصاية على ذلك الطفل . وقد تنبه إلى ذلك صقالبة القصر وكان عددهم يقارب الألف ، وكان لهم فى القصر نفوذ عظيم ، ولكن هذا النفوذ كان متوقفاً على وجود خليفة قوى يستفيد من خدماتهم ويثبتهم فى سلطانهم ، أما الوصاية فتفتح الباب للوزراء والطامعين .

مصير الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة القاصر :

بادر الفتيان « فائق وجوذر » كبيرا الصقالبة بكتمان خبر وفاة الحكم ، وقَرَّرَا استدعاء « المغيرة بن عبد الرحمن » وعَمّ ولىّ العهد هشام لكى يسندا إليه الخلافة ، ولكن سوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا فى الأمر « جعفر بن عثمان المصحفى » حاجب الحكم أى رئيس وزرائه ، وكان أبوه فى أول أمره مؤدِّباً للحكم ، ونشأ هو صديقا للخليفة ثم وصل الى السلطان عن طريق هذه الصداقة الحميمة مع الحكم، ولكنه كان سياسيًا سيئاً أنانيًا عهد فى الكثير من وظائف الدولة لأبنائه وأقاربه . وكان كذلك غير أمين على الأموال ، فصور له خياله أنه إذا دافع عن خلافة هشام أصبح هو الوصىّ وأصبحت الدولة فى يده .

ولهذا فبدلاً من أن يكتم الأمر تظاهر بالاقتناع برأى الصقالبة ، ثم ذهب فاستدعى أنصاره وأولهم محمد بن أبى عامر صاحب الشرطة والمواريث ، وأفضى إليهم بما يُدبِّر الصقالبة ودعاهم إلى تأييد هشام واتفقوا على قتل المغيرة ، وتولى قتله محمد بن أبى عامر ،فكانت تلك الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصحفى وأصحابه وعلى الأندلس كله .

وعلى أثر ذلك بويع الصبى هشام يوم الاثنين ٣ صفر ٣٦٦ هـ/ أول أكتوبر ٩٧٦م وأقبل الناس يبايعون ، ويقال إنه لم يعترض على هذه البيعة أحدٌ

وإن كنّا نـؤمن أن المصحفى وصاحبـه محمد بن أبى عـامر قـاما بعمليـة تدليس وإرهاب لكـى يخلص السلطان لهما .وقد سعـدت بهذا التوفيق « صبـح » الملقبة بالبشكنسية ، وكانت فى الحقيقة شابة طمـوحة نافارية وهى « أم هشام » وكانت أقرب الناس إلى قلب الحكم ، وكـانت كما قلنا امرأة طموحهـا إلى السلطان ، تتدخل فى كل شىء وكـان جعفر المصحفـى ومحمد بن أبى عـامـر يخدمانها ويمكنـان لأنفسهما فى السلطان بالتقرب إليها .

وكان من الواضح أن التنافس واقع بين الـرجلين لا محالة ، وبدأ النزاع فعلاً ، فاستعـان محمد بن أبى عـامر بصبح على غـريمه ، فلم يلبث أن رقى وزيـراً ، ثم أصبح حاجباً أى رئيساً للوزراء .

ومـا إن وصل إلى هذه الـوظيفـة حتى غدر بصـاحبـه القديم ، فأسقطـه من الوزارة وألـزمه داره ، ثم بدأ تحقيقـاً معه فيما ضيع هـو وآله من أموال وأمـر به فسجن سجناً طـويلاً ، ثم أمر بقتلـه . وهكذا دفع المصحفى ثمن جـريمته فى قتل أمير برىء دون أى جريرة تستحق ذلك .

محمد بن أبى عامر يصبح السلطان الأعلى فى الدولة :

وعقب ذلك انقلب ابن أبى عـامر على الصقـالبة ، فعـزل رؤساءهم ثم أخـرج معظمهم من القصر ، وتـواطأ مع القادة وصـاحب المدينة وقـائد الجند وصـاحب الأعنّة على القبـض على ناصية السلطـان ، وبالفعل لم تمر سنـة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان فى الدولة ثم حجر على هشام الصبى ، فلم يسمح لأحد برؤياه، وأقنع أمـه بأنـه يفعل ذلك محافظة على ســلامـة الخليفة الصغير مـن المتآمـرين والراغبين فى القضاء عليه .

والحقيقة أن الخطر العظيم على العـرش كان ابن أبى عامر نفســه ، فقد نشأ هذا الرجل متآمراً خبيثاً أنانيًا ، وأسرته ترجع إلى أصلٍ يمنىٍّ ويقال إنه من شلب فى البرتغـال الحالية ، وكـان أبوه فقيهـا ذا مكانـة ، ودرس هو فى بلـده ثم فى قرطبـة ليصبح فقيهاً مثل أبيه ولكنه كان طموحـاً إلى المناصب مؤهَّلاً للعمل فى السياسة ، وقـد حكيت أساطير عن أصلـه وأوليـاتـه وطريقـة وصـوله إلى السلطـان ، ولكن الحقيقة أن خالاً له كان من كبـار رجال الإدارة والقصر ، فسعى له حتى أقامه على

خطـة المواريث فى إشبيلية ، وبفضل خـاله أيضـاً - وكان صهـره - نُقل إلى نفس الوظيفة فى قرطبة ، ثم رُشّح للنظـر فى أملاك الأمير هشام قبل أن يلى الحكم ، وهنا كانت مهارة ابن أبى عامر الذى توصـل عن طريق الولد إلى الاتصال بالأم وجعلها ترى أنـه يستطيع تأييد حق ابنها فى وراثـة العرش ، وعن هذا الطـريق تمكّن أمره وانفتح أمامه باب السلطان .

المهم أن محمـد بن أبى عـامـر سـار فى طـريقٍ سيئٍ لا ينظـر إلا لصـالحه ويضحّى فى سبيل ذلك بكل شىء ، فهـو لا يكاد يصلُ إلى هـدف مستعينا بحلفـاء وأنصـار حتى يتخلّـى عن حلفـائه بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير ، وقـد لمس ميل « الحكم » الشديـد إلى أن يَـخْـلُفَه ابنه فتقـرّب منه وكسب ثقته ، ثم نـدبه فى بعض المهام العسكـرية فى المغـرب ، وهناك بـدأ ابن أبى عامـر يكسب ولاء القادة والفرســان ، وأغدق عليهم من أموال الـدولة دون حسـاب ، لأن هذه الأمـوال كان المفـروض أن تعطى لـرؤساء البربـر فـاستخـدمهـا ابن أبى عامـر فى مصـالحه الشخصية .

وعندما وصل ابن أبى عامر إلى هـذه الدرجة من السلطان اتجه اهتمامه إلى أن يمسك بيـده زمام الجيش ، وكـان يتولاه القـائد غالب بن عبـد الرحمن النـاصرى صاحب الانتصارات العظيمة فى المغـرب وفى الثغر الشمالى . فخطب ابن أبى عامر ابنة غالب وتزوجها ، وأوسع لنفسه بذلك طريقاً إلى قلب هذا القائد الكبير .

ولا شك فى أن زواج ابن أبى عامـر من ابنة غالب قد أوجـد قلقاً فى نفس صبح البشكنسية ، فأصبحت تـرى بوضوح أن هـذا الرجل سـائر فى طريق يختلف عن الطريق الـذى كانت تريـده هى أن يسير فيه ، وبدأ صراع خفى بين ابن أبى عـامر وهذه السيدة التى كانت سبب وصـــوله إلى الســلطان ، ولكن « صبحاً » لم تكن تستطيع شيئاً وحدها ، خاصةً وقـد ذهب أمر صقالبة القصر ، وكانت تستطيع أن تستعين بهم لو أنها لم تُعِن محمدَ بن أبى عامرٍ عليهم .

وفى هـذه الأثناء كـان ابن أبى عامـر قـد تمكّن من قلب غالب ، خـاصةً وقـد استصدر له مرسوماً يعطيـه لقب ذى الوزارتين ، ولم ينس ابن أبى عامر نفسه فى أثناءْ ذلك فجعل نفسه قـائد جيش الحضرة ، فى حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر .

وبجيش الحضرة هذا بدأ ابن أبى عامر يقوم بغزوات فى الشمال فقام بغزوة موفقة فى غرب أراضى ليون سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م. وتنحّى له غالب حاسِباً أنه خليفة فعلاً ، وفى العام التالى قام بحملة أخرى عاد بعدها محمّلاً بالغنائم والسبى فازداد صيته وأحبه الجند وتحدث باسمه الناس . ولابد أن نذكر هنا أن غالبًا كان قد أسن ومال إلى القعود والراحة .

محمد بن أبى عامر ينشئ جيشاً خاصاً به من المرتزقة :

واهتم ابن أبى عامر بإنشاء جيش خاص به وكان ذلك أسوأ أعماله ، فاستقدم الألوف من البربر وأدخلهم فى خدمته ، ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يُخشَى بأسه ، وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربرى الغريب عن البلاد نفوراً شديداً ، وكرههم أهل قرطبة بسبب دالتهم العظيمة على صاحب السلطان ، ولكن ذلك كله كان لا يهم ابن أبى عامر ، بل ظن أنه يستفيد منه ، فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربر يحول دون اتحاد عناصر الجيش القديم ضده ، ويجعل البربر يشعِرون بأن مستقبلهم معتمد عليه ، أما نفور الناس من البربر فكان كفيلاً بأن يجعل البربر أكثر تمسُّكاً به وتأييدا لسلطانه .

وفى أثناء ذلك أخذ ابن أبى عامر يطارد كل الظاهرين من بنى أمية الذين يخشى منافستهم ، فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهاداً شديداً وقتل الكثيرين من رجاله ، وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه .

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصرى وقد تنبّه هذا الرجل إلى خديعة ابن أبى عامر إياه ، وبدأ صراع عنيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب وبذلك خلا الجو لابن أبى عامر ، فأصبح بهذه الأساليب الشريرة سيد الأندلس دون منازع ، يحكمه بالإرهاب والقوة والعنف والجريمة ، مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد .

ومن غريب أمر هذا الرجل ودلائل مكره الشرير ، أنه كان يحرص دائماً على الوقيعة بين جيشه البربرى الجديد والجيش الأندلسي القديم غير مبالٍ بما قد يؤدى إليه ذلك من نتائج ، فإن جيش الأندلس القديم كان يقوم على تقاليد

عسكرية جليلة ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وأبى العباس أحمد بن محمد بن أبى عبده ، وكان هذا الجيش مرتَّباً على نحو منظَّم يضمن لرجاله التدريب والخبرة ، وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمفرد عريف ، وكان العريف يدرب تدريباً طويلاً أثناء الخدمة العسكرية ، وكان العرفاء من أبناء البيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش ، فقد كانت العادة أن يخلف المحارب ابنه الأكبر ، أو أحد أبنائه فى وظيفته ، فكان للجيش الأندلسى بذلك نظام وترتيب ، وكان يعتبر درع الأندلس .

وقد حرص ابن أبى عامر على أن يحطّ من أمر أولئك الجنود البواسل وأن يظهر فى كل مناسبة أن جنده الجديد أمهر وأقدر منهم ، فامتلأت قلوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزق ، وهكذا أصبح العداء شديداً بين جيشى الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختفى محمد بن أبى عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين الجيشين .

وقد نشأت عن ذلك كراهة عميقة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد ، وسنرى أن تلك الكراهة كانت من أسباب سقوط دولة بنى أمية وتفرق أمر الأندلس .

غزوات محمد بن أبى عامر دوى عظيم ونتيجة قليلة :

وكان محمد بن أبى عامر يحس أن الناس جميعاً يرون فيه الغاصب المتآمر الماكر ، الذى وصل إلى السلطان بالخداع والمكر والأساليب السيئة مثل علاقته بصبح البشكنسية ، وكانت هذه العلاقة موضع تعليق وسخرية كثير من جانب الأندلسيين ، ولهذا فقد اتجه إلى تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إليه قلوب الناس ، وفى تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات ، فبدأ سلسلة طويلة من الغزوات الموفقة فى كل بلاد إسبانيا النصرانية ، وقد تناسى الشعب الأندلسى فِعلاً أعمال ابن أبى عامر السيئة إلى جانب هذا النشاط العسكرى ، ولكنه لم يثر فيهم ذلك الحماس الذى كانت تثيره غزوات أمراء بنى أمية وخلفائهم ، أوّلاً لأن الذين كانوا يقومون بهذه الأعمال لم يكونوا

جند الأندلس كما كان الحال قَبْلاً ، بل جند محمد بن أبى عامر ، ولم يكن الأندلسيون يحبونهم ، وثانياً لأن هذه الغزوات على كثرتها لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، ولقد قام محمد بن أبى عامر باثنتين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤ سنة ، ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما كانت عليه ، ولو أن محمد بن أبى عامر استطاع بهذه الجهود أن يرفع حدود الإسلام فى الشمال الغربى إلى شمال خط الدويرو بصفة نهائية لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزوات المتوالية التى أضعفت بلاد النصارى ولكنها لم تغيّر من أحوالها .

ولو أن خليفة محمد بن أبى عامر كان رجلاً قادراً مثله فربما كان يمكن أن تكون لهذه الغزوات نتيجة عظيمة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه « عبد الملك » وكان شابًا جريئاً باسلاً ولكنه كان طائشاً جاهلاً كثير المفاسد فلم يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطوفان بعد ذلك .

محمد بن أبى عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور ويخاطب بلقب الملك :

ولقد كسب ابن أبى عامر فى أواسط سنة ٣٧١هـ / ٩٨١م . نصرا عظيما على قوات مملكتى ليون ونبرة وكونتينة قشتالة ، وعندما عاد إلى قرطبة اتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش اسمه على السكة واتخذ هيأة الملوك وأخذ الوزراء ورجال الدولة بتقبيل يده عند المثول بين يديه ، أى أنه صار فى الحقيقة ملكاً للأندلس يحكم باسم خليفة محجور عليه فى قصور الزهراء وقد وضع عليه محمد بن أبى عامر الأرصاد والعيون ، بل أحاط الزهراء بسور وخندق حتى لا يدخل إليها أحدٌ إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبى عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملوكية فاختار مكاناً شرقى قرطبة وبنى فيه قصوراً سماها « الزاهرة أو العامرية » وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون القصور حول داره ، وخمل أمر الزهراء ، وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً ، خاصة وأن محمد بن أبى عامر كان لا يتورع عن ارتكاب أى جريمة فى سبيل الوصول إلى غاياته ، ومن ذلك أنه كان قد

استقدم « جعفر بن على » الزعيم الزناتى مع رجاله إلى الأندلس ليضرب غالباً الناصرى ، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة ، فلما انتصر على غالب جعل رجاله يغتالون جعفر بن على ، على أسوأ صورة سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م .

ومن أكبر غزوات المنصور وأدلها على طبيعة أعماله العسكرية قيامه فى صيف ٣٧٤هـ / ٩٨٥م . بحملة واسعة على إقليم قطلونية ودخوله برشلونة التى كانت قد سقطت فى أيدى قوات الفرنجة سنة ١٨٥هـ /٨٠١ م. ثم تحولت بعد ذلك إلى كونتينة قطلونية ، فافتتحها المنصور فى صيف ذلك العام ودمرتها جنوده، وبدلا من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجند نراه ينصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنداً ، فكأنه لم يقصد إلا التدمير وإنزال الضربات العنيفة التى تحدث دويًا ، ولكنها لا تصل إلى تحقيق هدف واضح دائم بعد ذلك .

ونظر المنصور بعد ذلك فى أمر المغرب ، وكان الحسن بن كنون قد صالح الفاطميين ودخل فى طاعتهم ودعا لهم فى قلعة حجر النسر شمال المغرب الأقصى واعتز بتأييد « بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى » عدو الزناتيين وهم أنصار المنصور ، فسارع بإرسال جيش قوى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٥م . وأردفه بجيش آخر ، فحاط قلعة النسر واستنزل الحسن بن كنون على الأمان ، وطلب الرجل أن يذهب إلى قرطبة مستأمناً.

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر لأجيب إلى الأمان ، ولكن المنصور تظاهر بالموافقة ، ثم أمر بقتله وهو فى الطريق إلى قرطبة فى جمادى الأولى ٣٧٥هـ . أواخر ٩٨٥م . وبذلك ارتكب المنصور غدراً جديداً شنيعاً وقد تطيّر الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة إن المنصور لن ينجو من عقاب الله جزاءً له على هذه الجريمة الشنيعة التى ارتكبها فى حق حفيد النبى ﷺ . وقد استمر نشاط رجال المنصور فى المغرب ، ولكن مقتل الحسن بن كنون وتشرد الباقين من أفراد بنيه يعتبر النهاية الحقيقية للدور الثانى لدولة الأدارسة ، فلم نعد نسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور فى حكم المغرب الأقصى إلى «زيرى ابن عطية الزناتى » وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين العنيد ، فلم يلبث هذا الزعيم الزناتى أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى ، ولما كان صديقاً للمنصور حليفاً للبيت الأموى فقد تركه المنصور على ذلك مطمئناً إلى أن الخطر

الفاطمى على الأندلس قد زال نهائيًا ، وكان ذلك سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م .

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون ، واحتل العاصمة نفسها وخربها ، فهرب ملكها « برمودو الثانى » إلى « سمورة » فطارده المنصور إليها واستولى عليها وخربها ، وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون فى طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال والشمال الغربى لإسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدى الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالى الغربى من جليقية .

وكان من أشد ما غيّر قلوب الأندلسيين على المنصور غدره « بعبد الرحمن بن مطرف التجيبى » صاحب سرقسطة وممثل بنى هاشم التجيبيين ، وكانوا من أعرق أهل البيوتات الأندلسية التى اشتهرت بالشجاعة وبعد الهمة ، وقد قتل هذا الرجل غدراً فى نهاية صفر ٣٧٩هـ / ٩٨٩م . وعلى أثر ذلك قتل المنصور ابنه عبد الملك إذ اتهمه بالتدبير عليه ، وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التجيبى « وبغرسيه فرناندت » كونت قشتالة لينتقم من أبيه لأنه كان يفضّل عليه أخاه الأصغر عبد الملك ، وقد عاقب المنصور بعد ذلك غرسيه فرناندت ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيرًا إلى قرطبة ، ولكنه مات متأثراً بجراحه فى الطريق وخلفه ابنه « سانشو غرسيه » فأصبح من أتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفى سنة٣٨٦هـ / ٩٩٦م . اتخذ المنصور لنفسه لقب الملك وأصدر أمره بأن يخاطب بالملك الكريم المنصور ، ومن الواضح أن المنصور كان يتجه إلى أن يجعل نفسه خليفة ويقيم بيته مكان بيت بنى أمية ، ولكن الظروف كلها كانت لا تعينه على إدراك هذا المطلب، لأن الناس جميعاً فى الأندلس لم يكونوا مستعدين لقبول هذا التغيير ، وعلى الرغم من القوة الكبرى التى وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا ليوقروه ، لأنه فى نظرهم لم يكن ليخرج عن طامح ذكى ، استطاع الوصول إلى ما يريد بمواتاة حظ لا يصدق ، وكان هو يشعر بذلك ويتحامى الأندلسيين وألسنتهم الطويلة ، والحقيقة أن المنصور كان رجلاً فى غاية الذكاء والقوة ، وكانت مواهبه للحكم عظيمة ، ولكنه كان لايتورع عن الجريمة فى

سبيل الوصول إلى ما يريد ، والمسلمون بطبعهم لا ينفرون من شىء قدر نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير ، نعم إن عبد الرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم ، ولكن الذين كانوا قبله ارتكبوا أبشع منها ، فكان هو فى نظرالناس مخلِّصاً لهم من شر الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ، ثم إن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينة والخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك كان رجلاً مأموناً وشريفاً ، أما المنصور فلم يكن للشرف عنده قيمة ، وكان أهل الأندلس كلهم يتحدثون عن سوء أفاعيله.

وربما كان من الممكن أن يتغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ، ولا ننسى أننا فى العصور الوسطى ، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حسب ، ولها الحق فى أن تصل إلى الملك ، أما بقية الناس فلا حق لهم فى الوصول إلى العرش ، وقد كان من أكبر ما أعان عبد الرحمن الداخل على إقامة دولة ، أنه كان سليل بنى أمية وحفيد خليفة هو هشام بن عبد الملك ، ثم إنه قرشى، من ذلك القبيل العربى العريق الذى يمثل الصدارة فى عالم الشرف والسؤدد ، أما المنصور محمد بن أبى عامر فكان رجلاً عاديًّا من سلائل اليمنيين ، ولم يكن المسلمون فى أى قطر مستعدين للتسليم بسيادة يَمنىٍّ أيًّا كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول : « لن تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بنى قحطان ويسوق الناس بعصاه » ، وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوىً ، وكان المنصور من معافر وهى من صغريات قبائل اليمن ، ثم إن أباه كان فقيهاً عاديًّا معروفاً للكثيرين من أهل قرطبة وشيوخها ، ومثل هذا الصلب لا يخرج فى رأيهم بيتاً ملكيًّا .

ولكن أكثر ما أضر بالمنصور ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنه أقام ملكه على جند مرتزقة من البربر أجنبى عن البلاد ، وكان جند المنصور معتزين بتأييده يتعالون على الناس ويثيرون سخطهم ، وقد وقفت كل البيوت الأندلسية العريقة موقف تحفظ من المنصور ، حتى الذين دخلوا منهم فى خدمة المنصور فعلوا ذلك خوفاً على حياتهم ، فإن غدرات هذا الرجل ما كانت لتؤمن أبداً .

الحزب العامرى :

ولكى يسد هذا الضعف لجأ المنصور إلى اصطناع بيوت جديدة فى العاصمة والأقاليم ، وكان رجاله هؤلاء يتكونون من زعانف أبناء الأسر الكريمة وضعاف رجالها ، ثم من الطامحين من صغار الفقهاء ، فرفعهم ابن أبى عامر إلى وظائف القضاة وأقامهم عمالاً على النواحى ، ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل النواحى وتكونت حولهم حواش من أمثالهم، ومن أمثلة هؤلاء « بنو عباد » فى إشبيلية « وبنو يعيش » فى طليطلة ، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمثالهم « أبو مروان عبد الملك بن شهيد » سليل أسرة بنى شهيد ، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقريةً فكريةً ، ولكنه كان رجلاً منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بنى شهيد العظماء ، وقد جعله المنصور نديمه وشاعره وصاحبه ، وكذلك يحيى الملقب « بسماجة بن عبد الرحمن بن مطرف التجيبى » سيد الثغر الأعلى الذى قتله المنصور ، وقد كان يحيى سماجة هذا من سخفاء الولاة ، وعلى يده تحول بيت بنى هاشم التجيبيين من بيتٍ جليلٍ من بيوت الحكم إلى بيت طامعين فى السلطان والجاه بأى طريق .

واستعان ابن أبى عامر كذلك بِنَفَرٍ من زعماء البربر النازلين فى بعض النواحى مثل بنى « الأفطس » الذين كانوا يقيمون فى بطليوس ، وبنى « ذى النون » وكان موطنهم فى شنتبرية فى جنوب غربى طليطلة .

وكذلك اصطنع ابن أبى عامر صقالبة جددا اشتراهم لحسابه لكى يصيروا من جنده وحراسه ورجاله .

ومن هؤلاء جميعاً تكون ما يعرف بالحزب العامرى ، ومعظم رجاله من طراز محمد بن أبى عامر خُلُقاً ، أى أنهم أنانيّون ماديّون لا يفكرون فى جماعة ولا صالح الإسلام أو العروبة ، بل هَمُّ الواحد منهم أن يصبح منصوراً صغيراً فى ناحية أو فى حدود سلطته .

وهؤلاء الناس الذين تَرَبَّوا فى مدرسة المنصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتمسكهم بالسلطان فى نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأى ثمن ، أولئك هم الذين سيعرفهم التاريخ بالاسم المشئوم : ملوك الطوائف .

والأمر الثانى : هو انعدام المفهوم الأخلاقى عنده تماماً ، ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبّونه ، وَيحذرونه ولا يقبلون منه شيئا ، لأنهم لا يعرفون ما يخبئه لهم ، ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه فى نفوسهم ، لأنهم كانوا يخافونه على أنفسهم ، فإنه كان مستعداً لأن يطيح برأس أى واحد منهم لأقل شك فى تصرفاته أو نواياه .

وكان المنصور كثير التجسّس على الناس ، بل كان يهدى الناس الجوارى والعبيد لكى يصبحوا عيوناً له عليهم فى بيوتهم ، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة وما يجرى مجراها ، وعلى مثل هذا الأساس لا يستطيع رجل أن ينشئ دولة .

والأمر الثالث : هو أن المنصور لم يرزق ولداً قادراً على النهوض بالعبء من بعده ، فقد كان له من الأولاد ثلاثة : واحد قتله بنفسه ، أما الاثنان الباقيان فَهُما عبد الملك الذى جاء من بعده وقد أشرنا إليه ، ثم عبد الرحمن وكان شابًّا سيّئ الخلق طائش العقل قاسى القلب ، وقد دفعه سوء رأيه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه هشام عهداً بتعيينه ولىّ عهده فى الخلافة ، وكانت نيته أن يتخلص منه بالقتل بعد ذلك ، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ١٠٠٣ م . وانتهى أمر بنى عامر فى يوم وليلة .

وقد أبدى المنصور فى أواخر أيامه نشاطاً واسعاً فى الغزو ، ويبدو أنه كان يرى أن الوقت قد آن لكى يخطو خطوته الكبرى فى اتخاذ لقب الخلافة ، فأراد أن يمهِّد لذلك بانتصارات كبرى فى ميادين الجهاد ، فقام فى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م بأكبر غزواته وهى المعروفة باسم غزوة « شنت ياقب » ، وشنت ياقب أو القديس يعقوب الحوارى وهو بالفرنسية « سام جاك » كان من حوارى المسيح ، وقد وصل إلى إسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمالِ غربىّ الأندلس وهناك مات ودفن وخَفِىَ قبرُه ، ثم ظهر نجمٌ دَلَّ راهبين على مكانه ، فكشفوا عنه وتأكدوا من وجوده فى المكان المسمى « كومبو ستيلا » وعلى الفور أقيمت كنيسة كبرى عرفت باسم « سنتياجو » أى القديس يعقوب ، أصبحت من أعظم المزارات النصرانية لا فى إسبانيا فحسب بل فى أوربا كلها .

أراد المنصور أن يغزو شنت ياقب فقام بحملة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأثقال الجيش بالبحر حتى مصبّ نهر « المنيو » وهناك أرست

السفن وتقدم الرجال من بقية الجيش ، واقتحم المنصور شنت ياقب بالقوة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور فى أوربا كلها وأصبح اسم المنصور رمزاً للرعب والخوف فى كل نواحيها .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور فى ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونتينة قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث فى أراضى مملكة ليون ، ولكن دبيب المرض كان يمشى فى جسده ، وشعر الرجل به وهو فى الطريق إلى برغش ، وبعد الواقعة اشتد به المرض فحُمِل فى محفةٍ، فلما وصلوا إلى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تمامًا ، وتقول المراجع النصرانية إن النصارى هاجموا جيشه وهزموه فى معركة قرب حصن يسمى قلعة النسور ، وعقب ذلك بقليل توفى المنصور ودفن فى مدينة سالم ، وكان يحمل كفنه معه ، وكذلك كان يجمع الغبار الذى يعلق بملابسه أثناء الغزو ، فدفنوه وذروا عليه غبار الجهاد وواروه التراب فى تلك القاعدة العسكرية الإسلامية العريقة ، وقد كتبوا على قبره :

آثارهُ تنبيكَ عن أخبارِهِ … حتَّى كأنَّك بالعَيَان تَرَاه
تاللهِ لا يأتى الزمانُ بمثلِهِ … أبداً ، ولا يحَمِى الثغورَ سِوَاه

تقدير المنصور :

ولا شك أن المنصور محمد بن أبى عامر كان من أعظم الرجال ، فقد قام بما لم يقم به أحد فى تاريخ الإسلام : استولى على أزمة السلطان فى دولة كبرى فى أوج سلطانها ، ووجه أمورها وساس أهلها سياسة مستبد غاشم لا يسمح بأي مشاركة له فى السلطان ، وقد استغل فى الوصول إلى ذلك مجموعة من الظروف أدت بالأندلس إلى ما يمكن أن نسميه فراغا فى السلطان ، ومهارته فى أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ بسرعة ويمكّن لنفسه فيه . أما هذه الظروف فضعف الحكم المستنصر فى آخر أيامه ورغبته الشديدة فى أن يصير الملك من بعده الى ابنه هشام ،

وكان هشــام صغيراً جدًا لا يـزال بينه وبين سن الـرشد ثمانيـة أعوام على الأقل ، وخلال هذه المدة كان لا بد أن يمسك السلطـان واحد من الرجال ، ولم ينظر الحكم فى تعيين أوصياء ، بل ترك الأمـر للمقادير ، وكان أكبر رجاله وصــاحب الحجابة – والمفروض أنه كان يقوم بدور الوصـى– رجـلا فاسداً أنانيًا قاسىَ القلب بعيداً عن الخلق وهو « جعفـر المصحفى »، وقد افتضح أمـره بقتل أمير برىء ومن نـاحية أخـرى نرى أن أبنـاء عبد الـرحمن النـاصر وهم أعمام ولى العهد ، كـان ينقصـهم الذكـاء وبعد النظر ، وقد فـوجئ واحد منهم وقُتل ، واستسلم الثانى للمقــادير ثم اختفى ، وربما كان عبـد الرحمن الناصر مسئولاً عن تلك الحالـة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشَلَّ نشاطهم وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة .

المهم أن المنصور وجـد هذه الظروف واستغلهـا لصـالحه ، ولا شكَّ أنـه كان مـؤهّـلاً للسيـاسة بطبعـه ، حـائزاً للكثير من الصفـات التى يحتـاج إليهـا رجل السلطان، فهو شديد الذكـاء دائم اليقظة يرى الأمور فى وضوح ويتبين خط العمل ويعمل فى سرعة يعجـز معها خصومــه عن التفكير ، وقد وصل إلى ما يـريد قبل أن يستجمع أحدٌ ممـن حوله أفكـاره ، إذ كان يخطـو من مشكلة إلى مشكلـة فى سرعة وثقة فى النفس دون أن يدرى أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة فى وصولـه إلى السلطان كانت السيطرة على « صبـح البشكنسية» وتولى الأمر باسم هشـــام مشتركاً فى ذلك مع جعفر المصحفى ثم أسقط المصحفى وبقي هو فى الميدان وحده يستصدر من الأوامر ما يشاء.

وأهـم ما استصدره ، هو الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائدًا له ، فقد أصبحت تحت يده قوة عسكرية لها خطرها ، وقد تصورت «صبح» أنه يعمل فى خدمة ابنها ففتحت له خـزانة المال ، وبا لمال استكثر من الجند ، أى أنه أصبح مستبداً عسكريًا ، وهنا لم تبق أمامــه عقبة ، فهذا قائد عسكرى يحكم بقوة السلاح .ومثل هذا فى التاريخ كثير ، ولكن عبقرية المنصور كانت فى كيفية الانتقال من طالب علم وفقيه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكرى .

والسؤال الآن : ماذا فعل المنصور بالسلطان الذى وصل إليه ؟.

إن أمـامنـا أمثلة كثيرة من المستبـدين بـالعـروش ومـا فعلوا ، هنـاك مَثَـلاً

«ريشيليو » ذلك الكاردينال الفرنسى الذي جعل نفسه وصيًا على الملك الصغير لويس الثالث عشر . لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم ، أعظم بكثير من سلطان المنصور ، ولكنه عمل دائماً لرفعة التاج ولخدمة فرنسا ، وعندما توفي ريشيليو ولويس الثالث عشر وجاءت أيام لويس الرابع عشر وصلت فرنسا الى أوج القوة والسيادة فى أوروبا ، وكان ذلك نتيجة لعمل ريشيليو الذى اجتهد فى خدمة فرنسا وتاجها ووحد أمرها وحارب خصومها فى الداخل والخارج حتى وصل بها إلى زعامة أوروبا .

ولكن المنصور لم يستطع أن يفعل شيئاً مثل ذلك . لقد حقّر حكّام الخلافة وحقّر أمرها وحمل عليها وحرض رجاله وأبناءه عليها واتجه رأساً إلى القضاء عليها ، وكانت الخلافة القرطبية هى عماد قوة الإسلام والعروبة فى الأندلس ، وبدونها تتعرض للفوضى والأخطار ، ولكن المنصور لم ينظر إلى شىء من ذلك ، واتجه إلى تخريب ذلك النظام القيم لكي يجعل نفسه سلطاناً .

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره فى الأندلس ، كان سلطانه أقوى من سلطان عبد الرحمن الناصر ، لأن الناصر رغم نزعته إلى الاستبداد كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها ، فهو لا يسرف فى الحروب مع الممالك النصرانية ، لعلمه بأن من المستحيل عليه القضاء عليها ، ولهذا كان يكتفي بإضعافها وردعها عن الإغارة على بلاده وإخضاعها لقرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية ، أما المنصور فوالى الضربات دون حساب ، وهو فى ضرباته لم يحاول أن يقتطع جزءاً من أراضيها ويضمه نهائيًا إلى أرض الخلافة . لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصارى جنوب «دويرو » وإسكان المسلمين فى الأراضى التى يفتحها ليحول هذه البلاد الى أرض إسلامية ، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال إنه فعل شيئاً حاسماً ، ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالغنائم ، فيعود النصارى إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية ، فكأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً . كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدى إلى نتيجة اذا واصلها الناس بعده لمدة قرن مثلاً ، فإن ذلك كان حريًا بأن يضعف القوى النصرانية إلى حَدٍّ لا تستطيع معه أن تفعل شيئاً بعد ذلك ، ولكن المنصور لم يفعل هذا ولم يخلفه من يواصل عمله ، فكانت النتيجة أن النصارى استطاعوا خلال السنوات التى أعقبت موته تجديد قواهم واستقووا بعد ذلك على المسلمين .

ولم ينشئ المنصور فى الأندلس شيئاً جديداً : فلا هو أوجد نظاماً جديداً ولا أصلح شيئا من عيوب النظام القائم . وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية ، وقد أضحى بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤٣٠٠ متر مربع ، أى ما يزيد على ستة فدادين ، وليس فى الدنيا مسجد ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم ، باستثناء قصور فرساى . ولم ينفرد الجامع بالحجم فقط ، بل كان طرازه رائعاً حقًّا وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الأموى تحطيماً لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده ، وتتبع كل من يُرجى خيرٌ من أفراده بالقتل والأذى والتشريد ، وفعل مثل ذلك بأبناء البيوت الموازية ، نعم لقد خدمه الكثير من رجالها ، ولكنه جعلهم أتباعاً وندماء وحواشىَ ، والحواشى لا تنفع أحداً ولا تقيم مُعْوَجًّا .

وقد أحاط المنصور نفسه بسياجات كلها ضرر وخطر على المجتمع : أنشأ الجيش البربرى الجديد فكان بلاءً على الأندلس ، إذ أصبحت القوة العسكرية للبلاد منقسمة إلى قسمين متعاديين ، وفى حالة أى اضطراب فى النظام لم يكن هناك مفرٌّ من الحرب الأهلية ، وأنشأ الحزب العامرى من رجال على غراره ، كلهم طامعون أنانيّون لا يعمر قلوبهم إيمانٌ ، وهؤلاء هم الذين سيرثون الأندلس من بعده ويتقاسمونه فيما بينهم . لقد حكم المنصور سبعة وعشرين عاماً هجريةً انتهت ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ / ١١ أغسطس ١٠٠٢م ، ولا نستطيع القول أنها كانت خيرا على الأندلس . لقد أحدث دويًّا كبيراً بأعماله وانتصاراته ، ولكنه كان كالطبل الأجوف : صوت كبير وعمل قليل .

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمآثر المنصور دون أن تخفى جرائمه ، ومعظمها يصفه بالتقىّ ويقول إن الجهاد كان قرة عينه ، والحقيقة أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم فى سبيل سلطانهم ، أما خارج السلطان وبعيداً عن منافساته فلا مانع من أن يكونوا ذوى عاطفة دينية واهتمام بشئون العبادة والإحسان وما إلى ذلك . هكذا كان أيضاً أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا ، وعلى هذا الأساس من الممكن

أن نتصور كيف كانوا يجمعون بين الإجرام والتقى ، بين الشر الخالص والخير الخالص دون أن يكون فى ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

عبد الملك المظفر بن المنصور

رمضان ٣٩٢ ـ صفر ٣٩٩هـ

أغسطس ١٠٠٢ ـ أكتوبر ١٠٠٨م

وقد خَلَف المنصور فى سلطانه ابنُه عبدُ الملك المظفَّر الذى تلقب بسيف الدولة وكانت سنُّه ٢٨ سنة ، وقد ورث عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً فى الظاهر ، ولكنه كان فى الحقيقة مهددًا بالأخطار ، لأنه رغم استصداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه فى الحكم ، كان يشعر أنه كان غاصِباً ، وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جداً فى قرطبة ونواحى الأندلس يتربصون به ـ وبآل عامر جميعاً ـ الدوائر .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مؤهَّلاً للوقوف فى وجه العقبات التى كان لا بد له من تخطيها ، كان ينقصه العمق الإنسانى والتكوين الفكرى ، فعلى الرغم من اجتهاد أبيه فى تكوينه إلا أنه لم يكن غير جندىٍّ جاهلٍ ، تربَّى وسط الجنود دون أن يكون لديه موهبة القيادة ، فكان طوال حكمه القصير نهبا بين رجاله وأهمهم صقلبى من موالى أبيه يسمى « طرفة » ووزير قوى مداور مناور يسمى « عيسى بن سعيد بن القطاع » ، وكان الشاب إلى جانب ذلك مسرفاً فى الشراب ، لا يكاد يهبط الليل حتى يعقد مجلس الشراب مع رجاله ، وكلهم ثعالب يجتهدون فى الفوز منه بأى شىء ، وفى ساعات الشراب كان يستمع لوشايات الوشاة ويصدر أحكامًا عنيفة ، ففتك بمولاه طرفة ثم قتل سعيد بن القطاع فى مجلس شرابه على أسوأ صورة ، وقد خافه الناس ، وشيئاً فشيئاً تحول هذا الشاب ، الذى تولى الملك فى الثامنة والعشرين شابًا تحيط به الآمال ويملأ قلوب الناس من ناحية الاستبشار ، إلى طاغية ظلوم غادر ، وقد كان أبوه يعرف كيف يَلين حيناً ويشتدّ حيناً ويقسو ويأسو ، أما هو فلم يكن لديه من ذلك شىء، وإنه لمن المحزن أن نرى كيف أخذ الفراغ يحيط بهذا الشاب ، إلا من عتاة الجند والمرتزقين الذين كانوا لا يشيرون عليه بخيرٍ أبداً .

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غزوات أبيه ، أى أنها كانت ضربات قصيرة الأمد والمدى . غزا قطلونية وبرشلونة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م وأرغم أميرها « رامون بوريل الثالث » على طلب الصلح ، وفى صيف ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م غزا أراضى ليون ، وفى صيف ٣٩٦هـ / ١٠٠٦م . غزا مملكة نبرة واحتل بنبلونة وفى ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م غزا كونتينة قشتالة ، ثم غزاها مرة أخرى فى العام التالى ، وفيه أيضاً أراد أن يخرج للغزو مرة ثالثة ، ولكنه مرض واشتدت به العلّة ، وتوفى ربما من التهاب رئوى فى ١٦ صفر ٣٩٩ هـ/ ٢١ أكتوبر ١٠٠٨م وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم ٧ سنوات فحسب ، كانت سنوات رخاء ونصر ، ولكن الناس كانوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانوا يتمنون زوال العامريين . ومن الواضح أن الذى قضى على عبد الملك كان انهماكه فى ملذاته ، لأن ما أصابه كان نتيجة استهتاره بصحته وتعرضه للبرد وإسرافه فى السهر حتى أُعيى جسدُه .

عبد الرحمن بن المنصور :

وخَلَفَه أخوه عبد الرحمن الذى تلقب بالمأمون ويقال إنه هو الذى قتله ، وكان شابًا طائشاً قاسياً مجرّداً من الصفات الإيجابية المؤهلة للحكم السليم ، وكان الناس قد ضاقوا ذرعاً باستبداد العامريين وكانت أم عبد الرحمن حفيدة لسانشو غرسيه ملك نبرة ، وكان أبوها سانشو أباركة ذلك الكند الأرغونى أحد الأمراء المطالبين بالعرش والذى أسره المنصور ثم أطلق سراحه وتزوّج ابنته ، وكان قد انضم إلى المنصور أملاً فى أن يعينه على الوصول إلى عرش نبرة ، أما أم عبد الرحمن فقد أسلمت وتسمّت باسم « عبده » وكان الأندلسيون يعرفون ذلك عنه ولا يستريحون إليه ، أى : لا يستريحون لأن أمه نصرانية فلقبوه بشنجول أو سانشويلو .Sanchuelo أو سانشو الصغير نسبة لأمه بنت سانشو أباركة كما قدمنا ، وكان الناس يكرهونه ويحتقرونه ولم يحتملوا أن يروه قائماً بالأمر مكان أبيه المنصور . وزاد سخطهم عندما سمعوا أن عبد الرحمن شنجول ، يسعى لكى يستصدر مرسوماً بتعيينه وليًا لعهد الخلافة . وقد أنكر الناس ذلك إنكارًا شديدًا وقامت قيامتهم لأن الرجل كان من الناحية الأخلاقية أبعد ما يكون عن أن يستحق الخلافة . ولكن عبد الرحمن فعل ذلك وأصبح ولى عهد الخليفة . وبقيت

أمامه خطـوة القضـاء على الخليفة نفسه لكى يصبح هو صـاحب الأمر ، ومن سوء الحظ أن رجالاً مثل القاضى « أبى العباس بن ذكوان » والكاتب « أبى حفص أحمد ابن برد » أيَّدوه فى ذلك .

مقتل عبد الرحمن بن شنجول وسقوط العامريين :

وبـدأ الصراع بين هذا الـرجل المتسلِّق والأرستقـراطيـة القرطبيـة التى طـال سكوتها دون أن ترفع صـوتها ، وقد أخذ احتجاجها صـورة انصراف أفرادها عن التوافد على قصر الـزاهرة ، لأن قادة البربر كانـوا يتقدمـون عليهم هناك ،فأصدر عبد الرحمن أمراً يلزمهم بلبس العمائم ، وكـانت لباس زعماء البربر والتخلِّـى عن أغطية الرأس الأندلسية ، فبدأت الاتصـالات بين كبار الأندلسيين وبقايا الأمويين ، وتحدث الناس بأن هنـاك مؤامرة تدار لإعـادة بنى أمية إلى السـلطان . وأراد عبد الرحمن أن يقوى مركزه بغزوات يقـوم بها ، فأعلن أنه خارج لغزو قشتالة فى يناير ١٠٠٩ م جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ولم تكن العادة أن يخرج الناس للغزو فى هـذا الـوقت ، ونصح الناس شنجـول بألاّ يخرج ، ولكنـه أصرّ ، وقـد وصل إلى جليقية ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً نظـراً لخلوّ الأراضى من المزروعات وشدة البرد وهرب النصـارى إلى فنن الجبال فقفل راجعاً ، ولم يكد يـدخل طليطلة حتى بلغه أن ثورة قامت فى قرطبة وأن الناس هاجموا مدينة الزاهرة ونهبوا ذخائرها .

ثورة قرطبة وبداية الفتنـــة الكـبـرى
١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩م:

وكـان ذلك حقًّا فإن نفـراً من البـاقين المشردين من بنى أميـة قرروا انتهـاز فرصـة ابتعاد عبـد الرحمن شنجـول والجيش للقيام بـالثورة مستعينين فى ذلك «بالـذلفاء » أم عبد الملك المظفـر ، وكانت لا تشكّ فى أن عبد الـرحمن شنجول قتل أخاه ـ ابنها ـ بالسم . فـاتصلت بنفرٍ من شُبَّان بنى أمية الساعين فى سقوط بنى عامر ، وكان زعيمهم شـابًّا مغامراً يسمى محمد بن هشام بـن عبد الجبار وهو من أمناء عبد الرحمن الناصر . فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل عبـد الرحمن شنجول أرض النصارى لكى يقـوموا بضربتهم ، لأن الجيش

يحتاج إلى شهر لكى يعود من هنـاك . وبالفعل نفذوا المؤامرة فى ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ/ ١٥ فبراير ١٠٠٩م بـادئين بالهجوم على قصر قرطبـة واقتحموه وقتلوا صـاحب المدينـة عبد الله بن أبى عامر ، ثم بايع محمـد بن عبد الجبار لنفسه وبايعـه أصحابـه واتخذ لقب المهدى واختار قـريباً لـه يسمى سليمان بن هشام وجعله ولى عهده وأرغم هشاماً (الثانى) المؤيَّد على التنازل فتنازل بعد أن مكث فى منصب الخلافة ٣٣ سنة . كان ذلـك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ/١٦ فبراير ١٠٠٩م ثم تهدّمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها فى أيام.

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى الجيش تخلَّى معظـم رجاله عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له ، ونصـحه مولاه « واضح » حاكم طليطلة أن يظل مكانه، ولكن شنجول كـان يحسب أنه إذا ما اقترب من قـرطبة خرج الناس مـرحِّبين به ، فسار نحوها ورفض زعماء البربر وخاصـة « محمد بن يعلى الزناتي » زعيم زناتة أن يوافق عبد الرحمن على اقتحام قرطبـة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأُسَرَهم فيهـا ، وتخلّى البربـر جميعاً عنـه وتركـوه عائدين إلى قـرطبة لحمايـة أسرهم ، أما عبـد الرحمن ، فمازال يسير حتى وجـد نفسه وحيـداً وقد تخلّى عنـه كل الناس وانتهى أمره إلى أن قبض عليـه رجـالُ محمـدِ بـن عبد الجبار فى ديـر على نهر « أرملاط » قرب قرطبة وقتلوه فى ٣ رجب ٣٩٩هـ/ ٣ مارس ١٠٠٩م وكانت تلك هى النهاية المحزنة التى انتهى إليها أمر بنى عامر .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامرىِّ المستبدِّ كُلِّهِ ، فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الغاشم الذى لم يخـدم إلا مصـالح آل عامر ، ثم جاء عبد الرحمن شنجـول بطيشه وفساده وقلة تدبّـره ، فلم يلبث فى المنصب أكثر من ثلاثة أشهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام بمصرعه ، كما ذكرنا .

الفتنة الكـبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبـار كان من أسوأ طراز عرفناه فى شباب بنى أميـة الأندلسيين ، فقـد كان طائشاً قليل التفكير سوقىّ النـزعات ، لطول مـا عاش فى الأحيـاء الفقيرة متنكرًا بين رعـاع قرطبـة ، ولذلك أحـاط نفسه

بطائفة ممن كانوا على شاكلتـه ، لا يحسنون غير النهب والسرقة فآذوا الناس أذىً شـديداً ، وبَـدَا بوضـوح أن الأمل الـذى علّقه النـاس على هذا الـرجل لن يلبث أن يتلاشى .

لقد تولى محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أية فكرة عن الدولة وشئونها ، واتخذ لقب المهدى .

وقـد أجمع الناس عليـه أول الأمر مـؤمّلين أنـه يستطيع القبض على ناصيـة الأمور وتسييرهـا فى الطريق الذى سـارت عليه إلى الآن ، ولكن ابن عبـد الجبار لم يقم إلا بشىء واحد هـو الانتقام من العامريين والاستمتاع بما ظـن أنه من حقوق الخلفاء .

ولم يكن الرجل الذى يستدعيه الموقف .فقد كان الوقت وقتَ انقلاب وفوضى، ومست الحاجـة إلى رجل حاسم حـازم يمسك بزمـام الأمور ويقـرّها فى نصـابها ويردع العامة عما أسرفت فيه من الفوضى والنهب .

وكـان لابد كـذلك من النظـر فى العـودة إلى قـواعد النظـام التى قضى عليهـا المنصور بقسوته واستبداده ، ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يملك أية موهبة ، كان سفاكاً قاسياً منحط النـزعات ولم يهده ذكاؤه إلى شىء غير الاستبداد بالبربر وأذاهم وإهانتهم عقاباً لهم على تأييد بنى عامر ، ثم الانتقام من العامريين .

وقد أسـاء ابن عبد الجبـار التصرف لأنه نـاصب البربر العـداء ، وكان أولئك البربر قـد أتى بهم ابن أبى عامر إلى هـذه البلاد مرتزقين فى أعـداد كبيرة يتزعمهم نفر من خيرة زعماء بربر المغربَيْن الأوسط والأقصى ، وكانوا قد كسبوا مالاً عريقاً واتخذوا الأندلس وطنـاً لهم ، فأراد هذا الرجـل أن يقضى عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبـار أن يؤمّن البربر على مـراكزهم ومكـانهم ، فقد أتوا إلى هـذه البلاد للاشتراك فى الجهـاد وأبلوا بلاءً حسنـاً ، وليس ذنبهم أن ابن أبى عامـر استقوى بهم على بنى أمية .

وكان ذلك خطأً جسيماً منه ، لأن أولئك البربر كانـــوا قوة كبيرة ولم يكونوا كما ظن يعتبرون أنفســـهم رجـــال العامـريين ، بل إنهم بادروا عقب مقتل عبـد الـرحمن شنجول بإعـلان الطاعـة للخليفـة الجديد ، ولـو أنه كـان على شىء من

السياسة لقبل ولاءهم ، كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستألف الناس حتى استقر له الأمر، وبدلاً من ذلك نجد محمد بن عبد الجبار يحاول استذلال البربر بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم « زاوى بن زيرى الصنهاجى » فمنع من دخول القصر وأُهين ، وكانت النتيجة أن تخوَّف منه البربر ووقفوا منه موقف العداء ، فقرر فى أواخر مارس ١٠٠٩م/ رجب ٣٩٩ إخراج كل البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور من قرطبة ، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين فى عاصمة الخلافة .

وكان هذا الانشقاق فى الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس لأن الجيش كان درع المملكة ، وهذا الانقسام كسر وحدة الجيش وحرم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها .

وعقب ذلك مباشرة أعلن محمد بن عبد الجبار المهدى موت هشام المؤيَّد الخليفة الذى حكم تحت ظل العامريين ، وكان ذلك فى ٢٧ شعبان ٣٩٩ هـ/ ٢٦ أبريل ١٠٠٩م ودفن هذا الرجل فى مشهد فى نفر كبير من الناس من بينهم القاضى أبى العباس بن ذكوان ، ولكن الحقيقة أن هشاماً المؤيَّدَ لم يمت ولم يُقْبَر ولكن ابن عبد الجبار فعل ذلك ليخلو له الطريق ، وقد سخر الناس فى قرطبة من ذلك العمل لأنهم كانوا يعرفون أن هشاماً لم يمت .

وخاف البربر من نوايا محمد بن عبد الجبار ، فتجمعوا خارج قرطبة فى « فحص السرادق » ، وقرّروا اقتحام قرطبة بالقوة واختاروا لأنفسهم خليفة من أحفاد الناصر أيضاً ، يسمى سليمان بن هشام ولقّبوه « بالمستعين » وبذلك أصبح فى البلاد خليفتان : واحد فى قرطبة والآخر على رأس البربر .

معركة قنتيش ، نهاية الجيش الأندلسى التقليدى :

وأحسَّ محمد بن عبد الجبار المهدى أنه لن يستطيع الثبات أمام البربر ، فأرسل يستنجد بالنصارى وخرج ليلقى البربر وكان اللقاء يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ/ ٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩م فى « قنتيش » إلى الشمال الشرقى قليلاً من بلدة « القليعة » عند ملتقى وادى « أرملاط » بالوادى الكبير ، وفى هذه المعركة

حصدت صفـوف الأندلسيين حصداً ، وانتصر البربـر ، وفَرّ نفـرٌ من الأندلسيين الصقالبة إلى شرقىّ الأندلس وعلى رأسهم « واضح العامرى » واستقروا فى دانية ، وكانت تلك هى نهاية القوات الأندلسية التقليـدية الأصيلة التى كان محمد بن أبى عامر قد أضعفها وشل حركتها ورفـع البربر فوق رجالها فساء حالهم . تلك القوة العسكرية المجيدة التى طا لما كسبت لـلإسلام فى الأندلس نَصْراً بعد نصرٍ ، وبعد القضاء عليها لم يستطع أحـد ممن تولوا الأمر أن ينشئ قوة عسكـرية لها قيمة فى الأندلس.

ودخل البربر قـرطبة وعـاثوا فيهـا فساداً وقتلوا الكثير من أهلهـا ومن بينهم العالم المشهور « أبو الوليد الفرضى » وفرّ من قرطبة محمد بن عبد الجبار المهدى إلى الثغــور وأصبح زاوى بن زيـرى سيّـد الموقف ، فأخـرج هشامـاً المؤيَّـد من سجنـه وتبيـن بذلك ـ بوضـوح ـ أنه لم يمت ولم يدفن ، وفى ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ /٨ نوفمبر ١٠٠٩م دخل زاوى القصر وهناك بايع البربر سليمان المستعين واتخذوه خليفة .

وقـد أثبت سليمان المستعين فى المدة القصيرة التى تـولاّهـــا أنـه ليس بكفءٍ للمنصب الذى تـولاه واضطرب أمره ولم يحسن زاوى بن زيرى رؤيـة الأمور لأن القرطبيين نفروا من البربر نفورًا شديـداً ، وفى نفس الوقت كان واضح العامرى قد ذهب إلى « أورخل» ولقى رامـون بوريل الثـالث كند بـرشلونـة وطلب منهم عونـاً عسكريًـا فأعطوه فـرقة عاد بها ليحـارب البربر وعنـد « عقبة البقـر » وهى بليدة صغيرة إلى الشمال من قرطبـة التقى جيش البربر ، وعلى رأسهم سليمان المستعين بجيش محمد بن عبد الجبار المهدى وأحـلافه من النصارى وفى هذه المعركة انهزم البربر وفر سليمان المستعين وعاد زاوى بن زيرى إلى قـرطبة ولم يطل مقامه فيها بل أخذ أهله وفعل البربر فعله وانسحبوا إلى الجنوب .

النزاع بين محمـــد بن عبد الجبار المهدى وسليمان المستعين :

عاد محمد بن عبـد الجبار المهدى إلى قرطبـة وأراد أن يقضى على البربر فسار نحوهم مستعيناً هو الآخـر بقـوة من النصارى ، وأعانـه بها الكونت «أرمنجول »

أمير أورخل ، واستطاع أن ينتصر على سليمان المستعين والبربر فى منتصف شوال ٤٠٠هـ/ أواخر مايو ١٠١٠ م فعـوَّل البربر على الانصراف إلى أفريقيـة وجمعوا أمتعتهم وأهـــلهم وساروا نحو الجنـــوب وتتبعهم ابن عبد الجبـار ومن معه من النصارى .

وكان اللقاء الثـانى بينه وبينهم عند نهر وادى « أيـره » فى ٦ ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ/ ٢١ يونيو ١٠١٠م وهناك انهزم محمـد بن عبد الجبار المهدى ومن معه من الأندلسيين والقطلانيين ، وقتل البربرُ منهم مقتلـة عظيمة حتى هلك فى المعركة ثلاثـة آلاف من النصـارى . وعلى أثر ذلك انســحب النصارى إلى بلادهم ، وكان « واضح » قد انضم إليه وعنـدما وقعت الهزيمة تجمّع الصقالبة العـامريون وعلى رأسهم « واضح وخيران وعنبر » وانسحبـوا إلى شاطبة وشرقى الأنـدلس ، ودخل سليمان المستعين مع البربر قـرطبة بعد مقتل محمد بن عبـد الجبار المهدى فى ٢٣ يوليـو ١٠٠١م/٨ ذى الحجة سنـة ٤٠٠هـ وأعلنت خلافـة هشام المؤيـد للمرة الثالثة .

ولم تطل مدة خـلافته هذه المرة لأن البربـر دخلوا قرطبـةوقتلوا الكثيرين من أهلها ولم يبق فى طاعة هشام المؤيد إلا قرطبة وما حولها .

هكذا بـدأت الفتنة وتدهـورت الأمور ، وقـد اجتهد زعماء قرطبـة فى مصالحة البربر أملاً فى عـــودة الأمـور إلى نصابها ، ولكن البربر تمســكوا بدعوة سليمان المســـتعين فأجيبوا إلى ذلـــك فى شوال ٤٠٣هـــ/ مايـو ١٠١٢م علــى يد القاضـى« أبـى العباس بن ذكـوان » ودخل سليمان المستعين قرطبـة وحاول أن يحكم معتمداً على البربـر ولكنه فشل هذه المرة أيضـاً ، خاصة وقـد أقدم على قتل هشام المؤيـد فى ١٥ذى القعدة ٤٠٣هـ/ ١٦ مـايو ١٠١٣ م وبـذلك انتهت حياة ذلك الخليفة المسكين الذى لم يهنأ بخلافته يوماً واحداً .

لم يستقر الأمر لسليمان المستعين قَطّ خلال السنـوات الثلاث التى قضاها فى الخلافة ، ولكن الحقيقـة أن جَوًّا من الفوضى والـرهبة ساد البلاد ، فلم يعـد أحد يطمئن إلى أحد ، ولم يظهـر رجل ذو كفاية وخلق يستطيع ضبط الأمـور ، فتوالت الفتن وكـانت المشكلـة الرئيسيـة هى مشكلـة ذلك الجنـد المرتزق الـذى أتى بـه

المنصور وهم الصقالبة من ناحية، والبربر من ناحية أخرى ، فأما الصقالبة فقد تركوا الميدان وفروا إلى السواحل الشرقية وحاولوا الاستقرار فى أمان فى المرية ومرسية ، يقودهم زعيم صقلبى يسمى « خيران » وحاول نفر آخر منهم الاستقرار فى دانية والجزائر الشرقية ، وخاصة « بنو برزال وبنو يفرن» ، ومع أن سليمان المستعين وافق على تثبيت المنذر بن يحيى التجيبى فى ولاية سرقسطة والثغر الأعلى لكى يستعين به ، إلا أن أمره لم يستتب .

ولو أن البربر أخلصوا لسليمان المستعين فربما كان قد صلح أمره ولكن الكثيرين من زعمائهم كانوا يخادعونه وخاصة « زاوى بن زيرى وحبوس بن ماكسن » زعيم البربر الصنهاجيين ، الذين كانوا قد وفدوا على المنصور وانضموا إلى جيوشه ، ثم استقروا بعد الفتنة فى غرناطة .

وقد ظهر من بين أولئك الصنهاجيين بيت يسمى بنى حمود ، ينتسبون إلى الأدارسة ولكنهم كانوا قد اندرجوا فى جملة البربر بعد نهاية الأدارسة ، ثم دخلوا فى خدمة المنصور وأولاده ، فلما انقضى أمرهم واشتعلت الفتنة تطلعوا إلى الخلافة ، وكان سليمان المستعين قد ولّى علىّ بن حمود منهم سبتة ، وأخاه القاسم بن حمود الجزيرة الخضراء ، فطمع علىٌّ فى الخلافة وتحالف مع « خيران الصقلبى » واقتحم قرطبة وقتل سليمان المستعين ، وزعم أن هشاماً المؤيَّد كان قد ولاه عهده ، وبدأ يحكم على أنه خليفة الأندلس ، معتمداً على رجاله من الصنهاجيين والزناتيين ، وبدأت فى تاريخ الخلافة القرطبية فترة قصيرة من الفوضى هى فترة الحموديين.

ومن الطبيعى ألّا يستطيع هذا الدعىُّ شيئاً كثيراً فلم يلبث أن قتله غلمانه فى ٢ ذى القعدة ٤٠٨ هـ/ ٢٣ مارس ١٠١٨ م وخَلَفَه أخوه القاسم بتأييد الزناتيين .

***